

## الفصل الخامس

### الزعييم ماو يبيع الحساء

تلتف الشوارع الضيقة والحارات في سوق شنغهاي لبيع حيوانات البيوت الأليفة في إحدى المناطق القديمة الباقية المجاورة لحديقة الشعب حول دكاكين صغيرة لاحصر لها، لكل منها موضعه في مملكة الحيوان. بعضها يبيع الطيور المغرّدة وأقفاص الخيزران، وأخرى تبيع الجدادج (صرّار الليل) المقاتلة أو السلاحف. ويبيع رجال على قارعة الطريق، السمك الذهبي المنتفخ، والسمك المقاتل السيامي ياقوتي اللون، وأنواع أخرى من السمك الاستوائي المرصع. ويسبح السمك الصغير في أكياس منقطة منقوخة من البلاستيك تجعله يبدو أكبر عشر مرات من حجمه الطبيعي وتضاعف فيه لون قوس قزح.

وترى المتسوقين هنا مثل أبناء مدن الصين المحترفين مفعمين بالنشاط والحيوية - يسميهم المتسوقون الأمريكيون تشببز chuppies - يصعدون على السلالم المتحركة في المراكز التجارية المتألقة المؤلفة من اثني عشر دوراً، ولا تبعد أكثر من بضعة أبنية. هذه ليست سوقاً للبضاعة الراقية، وإنما معظم ما يباع هنا بضاعة رخيصة الثمن ممتعة. ويتباهى أصحاب حيوانات البيوت الأليفة حيثما كانوا بحيواناتهم، وهذه الدكاكين تقدم لهم مجموعة متنوعة. فالطيور ذات الريش الجميل، والأصوات العذبة، أو الطيور النادرة تعطي بائعيها اعتباراً جيداً. وللأقفاص أيضاً نغمتها الخاصة. فالأقفاص المطوقة بالخيزران في أسفلها قد تكون بسيطة أو محفورة، مفصلة في تصميمها أو متروكة على حالتها الطبيعية. أما الأوعية الخزفية الصغيرة التي تحمل البذور والماء تأتي بأنواع شتى، بين الحجرية والخزفية. وتجد أكثرها صقلاً تلك التي لها نهائيات خشبية أنيقة

تربط القفص بخطاف تعليق معدني في أعلاه. وتصنع نهائيات الأقفاص الأرقى من قطع خشبية نادرة تحضر عليها مشاهد ريفية بحجم طابع بريد. وقد تكلف النهائيات قروشاً أو مئات الدولارات، كتلك التي توضع في علب زجاجية مقلدة. وإن الأناة والود هما السمة العامة للتجارة في السوق. حيث يشترك المتسوقون والعمال مع المخلوقات المتاجر بها في طاولات الدكاكين التي تقدم «نودلز» (وهي خدمة شراء ساذجة) في الهواء الطلق.

وإن سوق حيوانات البيوت الأليفة هو فجوة داخل المدينة يعيش الريف فيها. وإلى جانب العمل في الدكاكين وعلى الدراجات يزرع بعض الباعة أنفسهم حيث يستطيعون. فيقف بعضهم أمام مداخل الدكاكين يبيعون القواذب (الحيوانات البرمائية) والحشرات المقاتلة، وقد وضعوا أمامهم أكياساً كبيرة. وهذا السوق هو أحد الأماكن في وسط شنغهاي التي يمكن أن ترى فيها صينيين ما زالوا يرتدون لباس ماو، وثياباً عسكرية مهلهلة. ربما لأن الأعمال التي يقومون بها قدرة جداً لاتيح لهم ارتداء ثياب أفضل، أو أن لابسها أفقر من أن يرتدوا ثياباً أفضل منها.

إن أسواق حيوانات البيوت الأليفة في الصين أماكن يستطيع المرء فيها أن يبدأ العمل من الأرض، والأرض في الصين الجديدة هي كل ما يملكه بعض الناس، مثل أبناء أسرة لي عندما وصلوا إلى شنغهاي. غير أن المهاجرين يحملون الأرض معهم أحياناً، مثل امرأتين تعلو خديهما حمرة تحملان أطباقاً صغيرة من الخيزران مليئة بالخث (قطع من النبات متحللة ونصف متفحمة)، تتأملان نظرات العابرين من أهل المدينة، كأنهما تخجلان من أنهما قد خرجتا لتوهما من ماضي الصين السحيق. إن هاتين الامرأتين تبيعان الديدان، تجمعانها من التربة التي تحملانها على أطباقهما واحدة فواحدة، تستخلصان من الزبائن قطع النقود الصينية الصغيرة التي يحملونها في جيوبهم.

قالت امرأة غريبة تسير في السوق: «هل تتصور ذلّ ذلك العمل؟ إنه عمل وضيع لأرى ثمة عمل أوضع منه، إنهما تبيعان الديدان، تبيعان الديدان للطيور

المدللة عند الناس وحشراتهم». وتشير إلى فقر المرأتين ونحولهما، وقصر قامتهما، ونقص سعراتهما الحرارية، وتقول: إن شنغهاي مليئة بمثلهن.

ويسهل التمييز في شوارع المدينة بين الريفيين الفقراء وأهل المدينة الأحسن حالاً، أو هكذا يبدو للصينيين الذين يلتقطون المؤشرات فوراً ويطلقون حكمهم بناء على البنية، والبشرة، واللهجة، ونمط اللباس، وتوقع التعالي والسخرية والهزء خلالها.

وقد يحلو للمرء أن يرى الجانب اللامع من المدينة كطليعة للتغيير في الصين. فإن المدينة الكبيرة هي المكان الذي يوظف فيه المال الوفير. وثمة أماكن تتباهى بإظهار جانب مهم من جوانب الثورة الحالية كأسواق حيوانات البيوت الأليفة في شنغهاي، حيث يدخل الريف المدينة، وسوق الديدان يُبنى أيضاً بتوسع أعمال باوستيل Baosteel works، ومصنع جنرال موتورز GM الجديد في شنغهاي، أو طفرة البنيان في المدينة. وقد تبدو النساء اللاتي يبعن الديدان في الحضيض، غير أن وجودهن في شنغهاي يذكر بأن طفرة الاقتصاد الجديد قد انطلقت من الريف، وأن القوة الدافعة لسكان الصين الريفيين، الذين كانوا جماعة فتفرقوا وانطلقوا في تحركهم، هي التي تغير الصين والعالم.

كان يبيع الديدان بقصد الربح في أسواق حيوانات البيوت الأليفة من رابع المستحيلات قبل الإصلاح. فالإيديولوجية الشيوعية عن الطبيعة، والعمل، والطبقات ما كانت لترضى بذلك، وكأنما خلقت الطبيعة لتقهر، والعمال لخدمة الدولة. فكانت الأعمال التجارية التي شجعت وجود طبقة تنعم بالراحة تهدد الثورة بخاطر.

فقد أعطى الشيوعيون أنفسهم في عهد ماو مهمة إعادة تشكيل أرض الصين تشكيلاً جذرياً. واعتمدوا في ذلك على الإرادة - التي تذكها حملات إيديولوجية - وقوة عمل الشعب في تنفيذها. وليس ولع الحزب بمشروعات أعمال عامة عملاقة بخافٍ على أحد.

إن الذي لا يعرفه كثيرون هو همجية تصميم الشعب الصيني في رفضه للعالم الطبيعي. وقد أمضت الباحثة الأمريكية جُديث شبيرو Judith Shapiro ثلاث سنوات في الصين تتحدث مع الناس المعنيين بالحملات الحكومية الموجهة لإعادة تنظيم الطبيعة. وكانت إحدى الحملات في أواخر خمسينيات القرن العشرين وأوائل ستينياته تنادي بإفناء المخلوقات المؤذية الأربعة، فوجَّهت الصينيين إلى إفناء جميع الفئران، والذباب، والبعوض، والعصفور الدوري. وقد عبَّأ ماو البلادَ كُلَّها إلى الحملة، وجرَّ إليها جَيِّشَها الوطني من صغار الطلبة. وقامت قرى بأكملها بالتفتيش عن أعشاش العصافير وبيوضها وتدميرها، في هجوم عام مُنسَّق على العصافير. وسُيِّرَت دوريات في الحقول تضرب القدور والمقالي لتطرد العصافير. وعندما كانت العصافير تطير هاربة إلى ملاذ بعيد، كانت جيوش مكافحة الحشرات المؤذية تقف لها بالمرصاد، فتضرب القدور والطبول ثانية، لتحرم الطيور أي ملجأ تحط عليه. واختفى العصفور الدوري من الصين أو كاد، وطيور أخرى أيضاً. واختفى معها خط الدفاع الطبيعي الأول ضد الجراد وغيره من الحشرات الضارة بالحقول.

كانت تلك الحملة واحدة من عدة حملات أدت سنة 1960م إلى المجاعة الكبرى في الصين، وأدت إلى الانهيار الزراعي الذي سبب موت أكثر من 30 مليون شخص، في أكبر كارثة جرَّها الإنسان على نفسه في التاريخ. فاضطر جيش من عمال الإبادة، مزودين بمبيدات كيميائية لمكافحة الحشرات والأرض إلى معالجة غزو الحشرات الذي تبع ذلك. كان الاندفاع إلى تخليص حياة الصين من الطيور والحشرات ضارياً حتى شعر فنَّانو الصين التقليديون، الذين عاشوا عمرهم يرسمون الطيور والحشرات، برُعبٍ حالٍ بينهم وبين الإبداع أو عرض أعمالهم.

وارتبطت تربية حيوانات البيوت الأليفة بالطبقة الحاكمة و«أسلوب حياتها المتفسخ». فتلعن الإيديولوجية الرسمية الصينية الذين لديهم خدم، أو وقت فراغ، أو حيوانات بيوت أليفة أنها تعاديهم وتبرر العنف ضدهم. أما اليوم، فيعد

مَلءُ وقت فراغ الناس عملاً مريحاً وجيداً كأبي عمل آخر. وبرغم أن الدوافع الراضية لاقتناء حيوانات البيوت الأليفة مازالت قوية، غير أن قوتها ليست كافية لوقف تجارة حيوانات البيوت الأليفة أو إغلاق أسواقها، فهي التي تؤمن مورد رزق لأسر المزارعين الذين صاروا يعتمدون على تلك التجارة بدل ربط حياتهم بما يزرعونه من حبوب أو بمشروعات الحكومة.

وهكذا نجد باعة الديدان الوضيعين يُجسِّدون كل تغيير كبير في الريف، وكذلك التقلُّ بحثاً عن فرص مهما صغرت، وإشباع رغبات الصين من المتع التي كانت ممنوعة، بدخول مجالات جديدة أُلغيت من حياتهم منذ زمن غير بعيد.

### طعامٌ جيّد

إن أسواق حيوانات البيوت الأليفة هي أحد المواقع التي يدخل الريف فيها إلى المدينة. وثمة مزج واسع آخر يجري حول مائدة العشاء. فالإسراف في الطعام واختياره يتناقض تناقضاً شديداً مع عقود الحرمان التي جاءت بعد سنة 1949م فقد أحدث إصلاح الأراضي، في أوائل سنوات الحكم الشيوعي، تحسينات مهمة عند معظم الجماهير الريفية. غير أن إنتاج الغذاء أُلْحَقَ بأهداف النظام الصناعية. وتكَيَّف المزارعون الصينيون مع هدف ماو، خلال فترة القفزة العظمى إلى الأمام، في أواخر سنة 1950م لتصبح الصين من كبار منتجي الفولاذ، وهو مشروع وطني آخر أسهم في المجاعة الكبرى. وشجَّع الفلاحون على هَجْر الحقول إلى إنتاج الفولاذ. فَبَنَوْا «أفراناً في الساحات الخلفية» حيثما استطاعوا، وجمعوا كل ما تقنتي الأسرة من أدوات معدنية وأدوات مطبخ لِصَهْرِها في المصانع التي أقاموها خلف بيوتهم.

كان عليهم تسليم فولاذهم المنصهر إلى الدولة لتحقيق هدف ماو بالتفوق في إنتاج الفولاذ على بريطانيا العظمى، التي ما زالت رمزاً قوياً للهيمنة الاستعمارية والتصنيع الرأسمالي. وكانت النتيجة أن ذهب ثروات الأسر الريفية الصغيرة

هباءً منشوراً. فقد كان الفولاذ الذي صنعه في أفرانهم خلف بيوتهم مجرد كرات معدنية لا قيمة لها، لا تصلح لصنع أدوات بسيطة. وتقهقر السواد الأعظم من سكان ريف الصين بعد سنوات من سياسة سوء إدارة الصناعة والزراعة. فصار الشعب الصيني سنة 1979م أفقر مما كان في سنة 1950م، ويئس المزارعون.

كانت مكونات نظام الغذاء الرئيسة في الصين أيام الفقر زهيدة ورتيبة. ولم يعد الغذاء يلعب دوراً منمناً خلال ثلاثين سنة تلت 1949م، مثلما كان من قبل. وبقي المزارعون الصينيون، بناء على توجيهات الدولة، يركزون على محاصيل الحبوب التي كان النظام الشيوعي يقيس نجاحه به. كانت الخضراوات قليلة في معظم الأحيان؛ ولم يكن عند الصينيين في حزام الحبوب الشمالي سوى الملفوف، والبطاطا، واللفت. كان الغذاء مقنناً تقنياً صارماً. أما العمال (الكادحون) فقد كان غذاؤهم أكثر من وقودهم بقليل، وكان يصل إليهم عن طريق مواقع عملهم، يُتصدَّق به عليهم بمذكرات صغيرة تُقدَّم إلى مستودعات تابعة للحكومة. وكان تناول وجبة طعام في الخارج حدثاً نادراً حتى بعد بدء التحرر الاقتصادي. فطعام مطاعم الصين شراً لا بُدَّ منه غير شهى للمسافرين. كانت المطاعم أماكن قذرة لاتعرف الترتيب، تديرها شركات صغيرة تملكها الدولة، تقدم طعاماً مكوّناته رخيصة، لاتجد فيه متعة.

غير أن الأمور قد تغيّرت. فصار الطعام من أعظم المباح في حياة المدن في الصين. حيث تجد في معظم مدن العالم المهمة أطباقاً من مطابخ بلاد بعيدة. (إلا المدن الإيطالية، التي لا ترضى عن طعامها بديلاً [وحق لها ذلك - الناشر]). ويرشدك موظفو فنادق مدن الصين الكبيرة إلى الطعام الفرنسي، والإيطالي، والتايلندي، والمغربي، وعلى جعة إرلندة، وبتزا شيكاغو. فصارت مطاعم الهَمْبُرجر، والدجاج الأمريكي، والقهوة مرغوبة في كل مكان وخاصة في المدن الآسيوية.

وربما تجد في الصين وفرة من أنواع الطعام تضاهي ما في العالم كله، وهذا تغيير ليس طبيعياً من اهتمامات البلاد المتجددة. فقد عاد الطعام والأسرة

ليحتل موقع الصدارة في حياة الصين الاجتماعية والثقافية. وهناك من يُعدُّ لوليمة، في كلِّ جمع، وكل طقس، وكل اجتماع عمل.

وتُشير آن فيك Ann Veeck من جامعة وسترن ميشجن Western Michigan إلى أن كلمة رنكو Renkou الصينية التي تعني «السكان» تُترجم حرفياً إلى «أفواه الشعب». لقد عاشت فيك Veeck في نانجج Nanjing، عاصمة مقاطعة جيانجسو Jiangsu، في منتصف التسعينيات، حيث دَرَسَتْ تَغْيِيرَ حياة مئات بائعي الطعام بعد الإصلاح الاقتصادي. وتقول فيك كان بائعو الطعام أول موجة من المقاولين المدينين. كان الذين غامروا بدخول السوق الحرة في البداية، بعد سني الدعاية المضادة للرأسمالية، هم أولئك الذين ليس ثَمَّة ما يخسرونه. وقد أحجم معظم الصينيين عن البدء بأعمال تجارية، وإن كانت صغيرة. لقد شعروا أن رياح التَغْيِيرِ تَتَقَلَّبُ كثيراً طيلة ثلاثين سنة من الحكم، فحاذروا أن تَسِمَهُمْ أي محاولة لفتح عمل خاص بالعداء للثورة أو الإجمام. وكان من أوائل الذين دخلوا السوق أولئك الذين لم يَجِدُوا لأنفسهم مكاناً في النظام الذي تديره الدولة، وكان منهم أولئك الذين أُطْلِقُوا مؤخراً من سجنهم، ولم يكن لهم عمل آخر. وأدركت فيك أن لا عجب إذن أن لا يثق المتسوقون ابتداءً بِبِاعَةِ القطاع الخاص.

وتوجد اليوم أسواق لجميع أنواع الطعام، من أكشاك المزارعين والأسواق الكبيرة على مقربة من الجميع في نانجج والمدن الأخرى في الصين كلها. ووجدت فيك أن نصف سكان المدن يعيشون على بعد بضعة مئات من الأمتار من الأسواق.

### نودلز (شرائط المعكرونة) في الهواء

تبدو شوارع رودنج Rudong في مقاطعة جيانجسو في التاسعة والنصف مساءً أهدأ من شوارع مدن الصين الأكبر. فَرُودُنْج، التي يبلغ عدد سكانها حوالي 1.5 مليون نسمة، هي من أصغر مدن الصين الكبيرة، وقد يدهشنا ذلك

لأنها تقع على تقاطع بحر الجنوب الأصفر South Yellow Sea ومصب نهر يانجتس Yangtze. ولا بد أن تنشط في السنين القليلة القادمة، فقد صار للمدينة ميناء جديد سيجلب حركة ملاحية دولية. وإن رودنج، مثل أي مدينة صينية فيها قدر محتمل من الصناعة، تستقبل موجة هجرة من ترك المزارع.

ويخرج بعض هؤلاء المهاجرين الجدد ليلاً إلى أكشاك صغيرة يبيعون فيها الطعام للذين يعملون في وريديات متأخرة. وهناك باعة من زنجيانج Xinjiang، المقاطعة المسلمة الوعرة في أقصى شمال غرب الصين. وتراهم أكثر شبةً بالكازخستانيين، جيرانهم في آسيا الوسطى، من شبههم الصينيين. وقد صارت رؤية المهاجرين الرجال من زنجيانج مشهداً مألوفاً في مدن الصين، حيث تراهم يبيعون الكباب المبهّر من لحم الضأن المشوي على نار مفتوحة، مشكوك على أعواد (أسياخ) من الخيزران. وثمة آخرون يبيعون الزلابية أو الكعك المحلى.

غير أن المكان الأكثر ازدحاماً في الشارع الرئيس في رودنج هو كشك بسيط يبيع - شرائح المعكرونة - نودلز حيث يعمل رجل وابنه المراهق على حلة كبيرة يتصاعد منها بخار حساء لحم البقر. يعد إعداد النودلز على شوارع الصين نوع من الاستعراض الفني، والذي يُعدّه في رودنج يتقن فنين يجذبان الناس. فيأخذ عجينة سميكة ويضربها بالتناوب على النضد، ثم يسحبها إلى ارتفاع ذراعه ويشيها ليحضر، دون استخدام أي سكين، حزمة سميكة من النودلز الدقيقة. وإن أراد الزبون نودلز بنكهة ألد، فيحمل العجينة، ويرفعها عالياً فوق رأسه بيد، ويقطع باليد الأخرى، التي تحمل موسى حادة، العجين بضربات خاطفة إلى نودلز عريضة. وتتساقط النودلز في الحساء، حيث تنتفخ وتطفو على السطح.

لقد قَدِمَ الرجل إلى رودنج قبل سنتين من قرية زراعية داخلية في المقاطعة. ويقول: إن معظم شبان قريته قد هجروها، ويقدر أن سبعة من كل عشرة منهم قد ذهبوا إلى المدينة. ويقول: إنه عندما قَدِمَ المدينة لم يكن يعرف صناعة

النودلز، فراقب عمل الآخرين وتعلمها. ويتساءل إن كان ثمة من يصنع النودلز مثله في أمريكا، إن كان له أن يبحث عن عمل هناك.

ويزدحم الكشك بأهل الريف. فيصغي زوجان مع ابنتهما وعمرها اثنتي عشرة سنة، إلى قصة صانع النودلز ويومئون برؤوسهم. لقد جاؤوا هم أيضاً من مزرعة. كان الرجل يعمل في مصنع، ثم صار يصنع مع وزوجه توفو Tofu في البيت. وهي أكلة إقليمية عبارة عن قطع مرنة مسطحة بحجم كيس الشاي، قد تؤكل كما هي، أو تطبخ في المرق، أو تقلي بالزيت. تقول المرأة الثرثارة المرحة إن عملهما جيد ومريح، بينما يومئ زوجها برأسه ويبتسم لقولها.

وتقول لقد بلغت ثروتهما اليوم ما لم يكن لهما أن يحلما به في طفولتهما. لقد ذهبت الصين كلها حدوداً أبعد من أي شيء كان لهما توقُّعه من قبل. وقد جاءهما عَرَضٌ لعقد جديد لتزويد مدرسة بمؤن يومية. وصار يعمل عندهما اليوم ستة عشر موظفاً، قَدِمُوا جميعُهم من عمق الصين. ينام بعضهم في غرفة ملحقة بسُدَّة صغيرة يستعملونها مصنعاً. ويبدأ يومهم في الخامسة صباحاً.

تقول المرأة: إذا أردت أن ترى كيف يعيشون، فاذهب إلى سوق الطعام المجاورة في الخامسة والنصف صباحاً واسأل عنها باسمها المختصر زياوبنج Xiaoping أي الزجاجاة الصغيرة Little Bottle. وإن البناء المُعْتَم هو هيكل بناء بسيط سقفه معدني بحجم سوبر ماركت أمريكي كبير. وتقف فيه «الزجاجاة الصغيرة» قرب المركز، ويتألف موقعها من عدة صناديق بلاستيكية كبيرة مليئة بقطع من توفو. وتراها تتكلم بينما تُلبي هي وزوجها طلبات ثلاثة زبائن معاً، ويبيعان قبضة صغيرة من التوفو بيوانين اثنين، أي خمسة وعشرين سنتاً.

وتترك كشكها لتراقبك في جولة في السوق. وعلى الرغم من أننا في منتصف تشرين الثاني/ نوفمبر، غير أن تنوع المكونات ونضارتها تجعل السوق تظاهرة من أخضر لامع، وبرتقالي، وأحمر. وتجد تحت سقف سوق رودنج

أصنافاً كثيرة مثل أي سوق في مدينة نيويورك. حيث تمتلئ أقسام من السوق بالسّمك المتلوي ونتاج البحر، ودجاج يقرقر وماعز دُبِحَت لِتَوَّها ومُدَدَت على طاولات بيضاء. وليس ثَمَّة رائحة نَتِن. (وليس الحال هكذا في الصيف). وتَصِل معظم المحاصيل واللحم يومياً ويفرغ في المساء. وكم يأتي إليها من بعد مئات الكيلومترات عن رودُنْج؟ فتقول: «الزجاجة الصغيرة»؟ 99 بالمئة منها. وكم يأتي من بعد خمسين كيلومتر؟ خمسون بالمئة. ومن رودُنْج نفسها؟ ربما الثلث.

قارن ذلك بأي سوبر ماركت أمريكي أو أوروبي، حيث تأتيه بضاعته من جميع بقاع الأرض، فالفلفل من هولندا، والأزهار من التشيلي، ولحم الضأن من نيوزيلندا، والفاكهة من متشجان، وكاليفورنيا، وإسبانيا، وبناما. لقد قَنَّ باقي العالم إنتاجه وصار يأكل طعاماً مُتَلَّجاً. وعندما استرجع مزارعو الصين حق الإنتاج كانوا ملتصقين بقطع صغيرة من الأرض. غير أن رقعهم الصغيرة كانت مليئة بمحاصيل عديدة جيدة تُشُدُّ أنواعها اهتمام زبائنهم المحليين. وأما المزارعون الذين يعيشون على قطع صغيرة جداً من الأرض - ومعظمهم كان كذلك - فكانت محاصيلهم الجيدة لا تَلْبُثُ أن تنفد.

### مآدب مُتَنَزِّلَة

وهناك الطعام، وهو نظرة جديدة إلى التاريخ في الصين اليوم. فإذا تَلَفَّتْ يُمَنَّةٌ أو يُسَّرَة في أي شارع في الصين اليوم، ترى أن عودة المطابخ إليها تكفي لتشدُّ الناس إلى طريق رأسمالي. فكثرة أنواع الطعام يعني في الصين الشيوعية أكثر مما يعنيه في أي مكان آخر في العالم. ففي غياب انفتاح حق التعبير الحقيقي في الصحافة، والأدب، والفنون، يبقى الطعام الملاذ الوحيد الذي يجد فيه صينيو البر الرئيس تعبيراً قوياً عن ثقافتهم. وبخلاف الأعمال التي تقدم على الورق، أو القماش، أو الشاشة، فإن الحكومة لا تخشى أن يخفي الطهاة رسالة توجيهية في طبق جديد من الجمبري (القريدس) أو في قَدْرٍ يُطَهَى فيه البط. إن الطعام في الصين هو الحرفة الأكثر توهجاً والأصعب محاكاة.

أما الآن، وبعد أن صار الناس يتنقلون، أصبحت مآدب الصين تنتقل أيضاً، فإن المطاعم الإقليمية تنقل طعامها من منطقة إلى أخرى تلبي رغبات البلاد بأذواق جديدة. ويَجُنَّدُ مُنتَجُو الطَّعامِ الطَّهَاءِ من جميع أطراف الصين. لقد جعل التنافسُ المدنَ الصينية من أفضل الأماكن التي تقدم الطعام في العالم. فوَلَعِ الناسُ بالطعام يزداد، ويلهب الطلب الفوري المَلْحَ على الطعام الصيني الرائج. والمطاعم التي تلتقط الموجة تبلغ الذروة غالباً، فيزدحم أمامها الزبائن سنة أو سنتين ثم تَحْبُو. وقد أدى طعام هانجزو Hangzhou اللذيذ - الغني باللحم الدَّسِمِ الطري ومخ العظام، ولحم البط المطبوخ على نار هادئة، وسمك الماء الحلو المقلي بالصلصة الحامضة - إلى جنون حقيقي انتشرت فيه المطاعم في كل مكان. فطعام هانجزو - حيث طعام الأقاليم في أوجهه - نجده في المطاعم الكبيرة والغالية، بعضها له أدوار أرضية واسعة تضم أحواضاً للسمك تصلح لأن تكون متحفاً للمدينة، فيها مئات من أنواع السمك وصيد البحر. وقد اكتسب طعام إقليم يونان Yunnan في جنوب الصين، خليط النكهات الاستوائية في جنوب شرق آسيا، فلقى رواجاً جديداً. وقد أسهم فانج ليجون Fang Li-jun أحد أشهر نجوم الفن الصيني المعاصر في الصين بالاتجاه إلى مطاعم يونان الحديثة Yunnan في بناء برج في بكين الشرقية. حيث ترتدي المضيفات فيها الثياب التقليدية، ويمشين فوق أرض زجاجية عاكسة، وقد علقت على الجدران مجموعة من اللوحات لأشهر فناني البلاد.

ونجد في أحد المطاعم المنشورية في شنغهاي، المضيئة تغطي رأسها بخمار حريري عُلق به ذيل حصان طويل. وتتعرثر المضيفات بأذيال أثوابهن الفضفاضة الموشاة بالأصفر والذهبي للإمبراطورة العجوز سيكسي Cixi، تعلوها ثياب ثقيلة للرأس تناسبها، مكسوة بخرز سلالة أسرة كنج Qing، فالطعام هناك يأخذ الألباب. وإنك ترى الأزواج الشباب ينتظرون أكثر من ساعة ليجلسوا إلى طاولة خشبية قُدَّتْ بخشونة وتحيط بها أجدال شجر للجلوس عليها بدل

الكراسي. فَصِيرٌ ملكيو مانشو الذين كانوا سُبَّةَ جَذَابِين. فإن أحد أكثر الرموز سلبية لفلاحى الصين الشيوعية الإصلاحيين، هي الإمبراطورة العجوز، الرفيقة المتأمرة المهووسة بالسلطة، التي بددت ثروة الصين وباعتها إلى الأجانب، تقدم الآن وجبات من عشرة أصناف للمراهقين الذين يحملون الهواتف الجواله.

### الكولونل ماو

يعكس مشهد المطاعم فى المدن التحول المدهش الذى يخضع له ماو تسي تونغ إذ يأخذ دور الكولونيل ساندرس Colonel Sanders. فادخل مطعماً ما فى هُنان Hunan، تجد ماو ينظر مُحدِّقاً بك من كل صوب. لقد اعتاد الرأسماليون القدماء على وضع شخصياتهم السياسية العظيمة مثل باعة على رصيف. فقد أُطلق اسم لينكولن Lincoln على سيارات أمريكية فاخرة؛ ومراكز الإقراض يوم دفع الرواتب. كما توجد الملكة البريطانية بجلالتها واسمها فتغيرهما لبيع مظلات ومربيات. وإن أى قائد لديموقراطية غربية لابد له أن يُعنى بحماية التجارة. وقد استمد ماو شهرته من مقارعة عبيد الرأسمالية الخانعين، وليس من استعراضهم. وما زالت صورته، بسبب هذا الدور، تُعرض فى المواقع المدنية. وليس ثمة شك فى أن عظمة ماو تسيطر على ساحة تيانانمين Tiananmen فى بجين، مثلاً. ومازالَت نُصِب ماو التذكارية، كالمعروض فى تشنجدو Chengdu، المدينة الكبرى فى سيتشوان Sichuan تحرس الساحات العامة بين وقت وآخر. وليس ثمة من يخطئ التمييز بين ماو هذا وإصلاح السوق الحرة أو التجارة. وليس هناك من يعتقد أن ماو هذا سيقرب بالحلف السري الذى أبرمه مزارعو زياوجانج Xiaogang.

ويبقى لماو فى ذاكرة الصينيين الذين يعيشون أربعينيات عمرهم أو أكثر حضوراً لا يمكنهم الهروب منه. ويشكو الجيل الفتى فى الصين اليوم من الجيل الأكبر تصلُّبه بسنوات العيش فى ظل حكم ماو، حيث أدت إرادة الدولة الشرسة

وأثرها النافذ الذي يَصْعُبُ تقديره إلى زعزعة ثقة الناس وإثارة هواجسهم في البقاء - وهذه قاعدة عامة برغم أن الاستثناءات كثيرة. ويبتعد أصحاب العمل الشباب عن توظيف من تجاوزوا الأربعين، فالجيل الأكبر مصاب بجنون الرّبيّة. وهذا منعطف جديد يدعو إلى التشاؤم من الأفكار التي حَرَّضت الثورة الثقافية، التي تسمى الأربعة البالية، عندما حُضَّ الناس على نبذ «الأفكار البالية»، و«الثقافة البالية»، و«التقاليد البالية»، و«العادات البالية».

وبرغم التكاليف النفسية لحكم ماو، فإن ماو مازال الأيقونة الأبقى في البلاد. فأى شخصية أفضل تأتي بها لبيع الحساء. تعد حديقة هنان في شنغهاي متحفاً كبيراً بهيجاً لماو. وتوجد هنا صورة للقائد السعيد يُشعل لفافة تبغ. وأخرى تمجّد أيامه قبل أن يصبح ممتلئ الخدين، عندما كان وسيماً كنجم نهار. وهنا يضطجع، وهناك يضحك لطرْفَة، أو ربما كانت له مَسَرَّاته الخاصة.

أما المطاعم، فتوحي الصور بأمر آخر: تذوقوا طعام ماو المفضل. ولا بد في مطاعم هنان من تناول لحم الخنزير الدَّسَم. فقد كان ماو يحبه كثيراً. وترحب تماثيل ماو في المطاعم الأخرى في هنان، بالقدامين للعشاء عند المدخل، كما تفعل الكولونيالات المصنوعة من زجاج ليفي في مطاعم كنتاكي KFC. ويلقى في مطاعم أخرى معاملة أندي وور هول Andy Warhol، على نحو مبالغ فيه وبألوان الفن الشعبي.

وتصبح صور القائد أكثر جرأة مع مرور الوقت، إذ تصبح الصورة بعيدة عن صاحبها ومضمون تاريخه مثل بعد صور القيصر عنه في قصر القياصرة. هل يجد الأنصار غرابة في أن يقوم الآن أكبر أعداء الرأسمالية بالدعاية للمطاعم الخاصة؟ ليس ثَمَّة غرابة أبداً. فماو من هنان، وأهلها فخورون به.

وماذا عن الصور التي تظهره أبله؟ ويأتي الجواب إنهم يحاولون أن يجعلوا مطاعمهم متميزة. ولا يعني ماو شيئاً في السوق إلا حيث يباع. فالعمل في الصين هو عمل.

## دَعْوَى شَيْوَعِيَّةٍ مُصْطَنَعَةٌ

إنَّ إعادةَ تَصْنِيفِ مَآوٍ للرأسمالية يَطْرَحُ السُّؤالَ الآتي: أين ماضي الصين الأكثر راديكالية؟ فقد يتوقع المرء، في دُنْيَا لجان تَقْصِي الحقائق ونُصَبِ ذكري الإبادة الجماعية، أن تُوضَعَ أقسى سنوات الحكم الشيوعي تحت التَمَحِيصِ الشديد. وقد أَنْتَجَتِ مذكرات كُتَّابِ الصين في المنفى أدباً، لعلَّه أكثرُ آدابِ أواخر القرن العشرين إثارة. وإن بعض الكتب المحليَّة، إن هي سُردتْ بِلُغَةٍ مُلَطَّفَةٍ، تَجْتَازُ الرِّقَابَةَ. وقد تضمنت رواية يُو هُوَا Yu Hua، لكي تعيش To Live، التي صَدَرَتْ سنة 1994م قِصَّةً عنيفةً مُؤَثِّرَةً عن مُقَامِرٍ سَكِّيرٍ ثَرِيٍّ خَسِرَ كُلَّ ما عِنْدَهُ قبل الثورة ثم وَقَعَ أَسِيرَ التغيرات التي أَحَدَّثَتْهَا الحربُ وَسِنِّي الهندسة الاشتراكيَّة. وما زال الفلم الذي يُمَثِّلُ القِصَّةَ، وقد أُنتِجَ سنة 1994م، ممنوعاً في الصين.

ويروي شيوخُ الصين نِضالَهُمْ خلال القرن بشيءٍ مِنَ اللُّطْفِ في وقت الفراغ وعند تناول بعض الشاي أو الجعة. فتراهم يَسْعَدُونَ عندما يجدون أذنًا صاغية. فإذا بدأوا بالكلام، وتَحَلَّقَ حَوْلَهُم الأصدقاء، يومئون برؤوسهم إمعاناً بإدراكهم مَصِيرَ بَعْضِهِمْ بعضاً، والشعارات التي عاشوا في ظلِّها، والأصدقاء الذين أُحِبُّوهُمْ وفَقَدُوهُمْ، والحماس الذي مَلَكَ عليهم أَنفُسَهُمْ. فَتَجِدُهُمْ يَتَحَسَّرُونَ على ما فقدوا، يوم كانت أهمية عمال تنظيف الطرقات وصُنَاعِ الأدوات تعادل أهمية الأطباء وأساتذة الجامعات، وربما أهم. يوم كانت الملكية لا تعني لهم شيئاً حتى لم يكن ثَمَّةَ جرائم، ويوم كان يُعادُ أصغرُ شيءٍ يُفْقَدُ. فَتَتَهَالَقُ القصص والعواطف، لأنها لم تُسَمِعْ من قَبْلُ أو لأنها مشتركة ومفهومة حتى إنها لم تكن بحاجة لأن تُقال، على الأقل بين أولئك الذين عاشوا أسوأ الأيام.

ولا يعرف طلاب الجامعة من تاريخ أهلهم سوى نَزْرٍ يَسِيرٍ مُبْهَمٍ. وقد يكون ذلك محض صدفة وقد يكون عن قِصْدٍ. والحقيقة الوحيدة التي تُدْهِشُ أكثر عن تحول الصين هي أنها استطاعت أن تدفن الأحقاد والثارات الدموية التي ربما كانت سَتَّهَلِكُهَا. ويتعامل الناس في كل يوم، في كل بلدة أو قرية، مع الذين

أهانوهم أو عاملوهم أو عاملوا أُسْرَهُمْ بوحشية، أو مع أولاد الذين عاملوهم  
معاملة قاسية موجعة. غير أن الصينيين عامة يتطلعون إلى المستقبل. ويتطلعون  
إلى ما يمكن أن تكون عليه بلادهم، وإلى ارتقائهم مع السَّعْد الجامح الذي  
يَبْتَسِم للصين. كان الماضي حَسَنًا، وكان سيئًا، كان نظريَّة، وكان جنونًا، لم يُفْلِح،  
فتجاوزوه. فأمالهم حَيَّة.

رُبما يُوَدُّ الحزب الشيوعي لو يُلقى فَشَلَه في سَلَّة مُهْمَلات التاريخ. غير أنهم  
يذهبون، عوضاً عن ذلك، إلى سلة البيع. فثُمَّ بقايا صناعات كاملة مما تبقى  
من حطام العهد الشيوعي الصيني الغابر تُعَدُّ للبيع. فالفنادق الراقية، وأسواق  
السلع الأثرية، ومصائد السياح، تحوي كثيراً منها. وكثير منها حقيقي، كالأكوام  
العالية من مئات الكتب الحمراء الصغيرة، والمجلدات التي انكَبَّ الصينيون عليها  
زمنًا طويلاً في «الفحص الذاتي»، يحاولون تذكُّر، أو تكهَّن الطريقة المثلى لخدمة  
ماو والثورة.

فالكُتُب في كل مكان. وهناك في الأسواق كثير من تلك الكتب الحمراء  
الصغيرة، حتى إنك تستطيع بناء قصرٍ منها. وإن وراء كل كتاب أحدٌ، أو مؤسَّسة  
حكومية طرحته، ليُبَاع الكتابُ منها بجزءٍ من عشرة سننات أو عشرين سنناتاً.  
وليس بِمُسْتَعْرَب أن يَطْرَحَ أهل الريف هذه الجبال من الكتب، فيجمعها مهاجرو  
الريف الذين يديرون شبكات اتصالات بين القرى الصغيرة ليجدوا شيئاً من  
ماضي الصين يستطيعون بيعه في المدن.

وتوجد بالوفرة ذاتها كتب تعليمية مصورة، وهي أكثر تشويقاً، بتنوعها، من  
مجلدات ماو المنبوذة. إن هذه الكتب الصغيرة، بصفحاتها القليلة المقتضبة،  
لا تلائم الكتب الجريئة المصورة الجديدة السميقة التي تباع في أكشاك بيع  
الصحف. فالكُتُب القديمة تفوح منها رائحة العَفْن والعتث حتى تجد قلة من  
المتسوقين يقدمون على تَصَفُّحِهَا. غير أنها تحظى بإعجاب الأجانب الذين

يعرفون قيمة الأشياء التي ترجع إلى عهد سريع الزوال، من الأنواع التي تعود إلى أيام «طفرة الولادات» baby-boom\*.

فإذا فتحت أي كتاب، كيفما اتَّفَق، دون تعيين صفحة ما، تجد درساً طريفاً. فيخبرك أحدها عن صبي فرنسي برز في كوميونة باريس (لجان ثورية تدير المقاطعات) يحارب كمقاومي الثورات. ودرس آخر يخبرك عن صبي صيني فلاح يتمتع بموهبة تقليد أصوات الطيور. وبعد أن أبادَ أُسْرَتَهُ أصحابُ الأرض الأشرار والإمبرياليون اليابانيون، انضم إلى الشيوعيين في قتالهم من أجل الصين، مستعملاً صفراته ورعشات صوته ليحذر القوات سراً من أي تحرك للأعداء. وفي كتاب آخر، نشر سنة 1973م، وهي السنة السابعة للثورة الثقافية، يقرأ الأطفال عن يتيمة الثلج، وهي الطفلة التي تاهت في عاصفة ثلجية فأنقذها رجل من مليشيات الجيش الأحمر أثناء الحرب ضد الوطنيين. تنشأ الفتاة في كوميونة، وتكبر لتصبح من أطباء الصين الحفاة. وعندما يظهر الجندي صدفة في حياتها من جديد، وقد غداً شيخاً أعمى، يأتي دورها لتتقده.

إن أكثر الكتب المصورة- التي تخلى أصحابها عنها أكثر - هي كتب «كُمكس» الحارس الأحمر الصغير، التي تتحدث عن معارك الأطفال ضد أصحاب الأرض، واسعي المعرفة والثقافة، وسواهم من أعداء الثورة. ربما لم يستطع الأولاد لعب دور سوبرمان في أيام الصين القديمة، وإنما استطاعوا أن يكونوا ثوريين راديكاليين. وقد هدَّتْهُم كتب القصص المصورة، «كُمكس»، إلى سبيل ذلك. وهم أقرب الآن إلى الدَّهْمَاء.

أما الدعاية بالملصقات فهي أمر شائع آخر في الأسواق. حيث يزداد الإقبال العالمي على شراء الملصقات السياسية الصينية، ويخزن بائعو التحف كمية منها

\* إنها فترة تقع بين سنة 1940 وسنة 1960 في الولايات المتحدة الأمريكية، شهدت طفرة في الولادات، وتُسَمَّى baby-boom. (الناشر).

أيضاً. وقد لا يشتريها الصينيون المحليون بعد، وإنما تجد الأجنبيون الذين يغوصون في الأكوام، يتفحصون كل عامل بالحديد مُتَبَسِّم، سواء أكان رجلاً أم امرأة مُسْتَرَجَلَةً، أو مزارعاً يجدُّ في السير، وتجد صورة مهيبه لماو، فيجمع المشاهد تناقضات الراديكالية، والعاطفة، والذوق الفني، والذوق الرديء.

وتجدهم يحاولون التمييز بين الملصقات الحقيقية الأصلية والصُّور المُسْتَسَخَّعة عنها. وبينما يعمل الصينيون على تنظيف المخازن التاريخية العليا مع ذكرياتهم منها تتشط المصانع المحلية أيضاً في عمل نسخ منها. فكل بائع يعرف أن أحد بيوت بيع القطع الأثرية بالمزاد - سوذبي Sotheby - قد باع في أيار/مايو 2001م ملصق أيها الأمريكي عد إلى بلادك Yankee Go Home، الذي يرجع تاريخه إلى ثلاثين سنة خَلَّت، بمبلغ قدره 575 دولاراً. وقد بيع في مزاد سوذبي من بين 150 قطعة جمعت من مُقْتَنِيَات خَلَفَتْهَا الثورة الثقافية.

وتفيض الأسواق الآن بنسخ مُقلَّدة عن أشياء جديدة بأن تُذكَر عن ماو، وكلما ازدادت تلك الأشياء غرابة، زادت الرغبة فيها أكثر. ولعلك تتخيل الحوائج الشخصية لكل من مستر بينت Mr. Peanut، وإلvis، ومارلين Marilyn التي أُتيح لك أن تراها، وُضِعَ ماو بدلاً عنها. وترى التماثيل النصفية الخزفية، والتماثيل الصغيرة، والأطباق، والكؤوس، وعلب القصدير تموج في الأسواق، حسب تقديرات الباعة للرائج منها. وإذا تجوّلت في الأسواق مرّة في كل شهر تجد أصنافاً كاملة من مواد ماو تُعرَض على منضدات الباعة. قد تكون الميداليات الخزفية التي يبلغ طولها ثلاثة بوصات ضرية ناجحة في شهر ما. ثم تجدها معروضة بأطوال مختلفة في الشهر التالي.

ولحاجيات ماو الشخصية الحقيقية جمهور محلي يطلبها، ويستطيع الهواة جمع كميات هائلة منها. وقد نُشِرت ميليسا شريفت Melissa Schrift المتخصصة بعلم الأنثروبولوجي في جامعة ماركويت Marquette في ميلووكي Milwaukee دراسة عن تاريخ شارة ماو في سنة 2001م. كان وُضِعَ المجوهرات

أو إضافة أي لمسة إلى اللباس السائد في ستينيات القرن العشرين يعد انتهاكاً للمحظورات السياسية الصارمة. وكانت شارة ماو استثناءً. فكانت تنتج بأعداد هائلة تتجاوز البليون، وتزيد أشكالها المتنوعة على عشرة آلاف، حتى أثقل ضرب الشارات الاقتصاد الصيني فاضطر الحزب إلى وقف تلك التجارة. وعندما بدأ الإصلاح الاقتصادي في عهد دينج زياو بينج، جُمِعَت شارات ماو وصهرت لاستخلاص المعادن التي صنعت منها.

أما الآن وبعد أن أصبحت الصين أغنى، عاد الحنين إلى تلك الشارات يَنتاب شيوخ الصين وشُبانها. فنشرت صحيفة الشعب اليومية، في آذار/ مارس 2000م، قصة مُزارع يقتني مجموعةً من ثلاثين ألف شارة. جمعها ولاءً للقائد. تقول شريفت Schrift «ثمة أنواع مُتَدَنِّية منها أعتقد أن الجيل الأصغر من الصينيين الذين يجمعون الشارات القديمة يقدرونها، أما نحن الغربيين فإني أظن أن لدينا الاحتكار نفسه للمواقف الساخرة من الإرث الثقافي الشعبي. أما هواة الجمع الأكبر سناً، فثمة خاصية مسهلة لجمع الصور من عهد ماو. إنها سبيلهم للتعامل مع شيء في الماضي كان يشكل أذى لا يصدق، وهو ما تُفَضِّل الحكومة نسيانه. وسوف يمضي زمن طويل جداً قبل أن ينشأ متحف للثورة الثقافية في الصين».

كان صينيو ما وراء البحار، في هذه الأثناء، يُقَلِّبون النظر في فهم ماو سنين عديدة. كان شنغهاي تانج Shanghai Tang، مُصمِّم أزياء من هونج كونج يبيع ملابس حريرية متقنة التفصيل على شاكلة لباس ماو، ألوانها صارخة، وبيعت ساعات تحمل على وجهها صورة ماو ملوحاً بيده. وفي منتصف عقد 1990م وقد وطَّدت فيفيان تام Vivian Tam عملها، وهي مصممة أزياء في نيويورك، بقمصان قطنية T-shirts تحمل صورة ماو بضيفرة شعر مثل بنات المدارس. ولن يسمح بشيء مثل هذا في أسواق الصين، غير أن هواة جمع المواد الشباب، يتبعون الذوق العالمي في السخرية، فيشترون شارات ماو الآن أيضاً. وتذكر

شريفة أن كثيراً من الصينيين كبار السن يستأوون من أولئك الهواة، الذين ما يشتررون أصناف ماو بغرض الاستثمار غالباً. وقد كان الجيل الأكبر من الصينيين قد أطلق المد الأحمر لأصناف ماو في الأسواق. وكانوا يرحّبون بعائداتها.

ويستشف المرء، من تحويل الزعيم ماو إلى سلعة تجارية، طموح الصين إلى الابتعاد عن القرن العشرين. وليس ذلك تعويضاً عن الوقت الضائع فحسب، وإنما تفادياً للأسئلة الصعبة والانتهاكات المضادة التي قد تأتي. لقد حوّل التاريخ إلى سلعة، فما إن تباع السلعة حتى تساعد على تصفية الحسابات. إذا استطاعت الصين أن تصمد عشرين أو ثلاثين سنة أخرى دون أن يعود منتصف القرن العشرين ليخرج قطارها عن سكتته، فتكون البلاد قد طوقت المتفجّر من التراث الوطني في الذاكرة البشرية القريبة. فهل يكون أي رد فعل أصح من ذلك أكثر؟ فالأحقاد التاريخية هي القوة الحاسمة الأكبر في التاريخ الحديث، وتحرص الصين كل الحرص على أن لا تحمل حقداً ضد نفسها. لقد أصبح السوق هو الجواب الآن. الرئيس ماو يبيع الحساء.

